صور من الحياة :

ضعف

للأستاذ كامل محمود حبيب

تبًّا لك يا من تتشح بالمبادئ الفجة والنظريات السقيمة لتغوى العقول التداعية والأذهان الضعيفة فتخدعهم عن الوطن وهو روح القلب ، وتصرفهم عن الدين وهو نور الحياة ، وتشغلهم عن اللغة وهي سر الكرامة . أي شيطان وسوس لك — يا صاحبي — فرحت تمهن الوطن والدين واللغة ، وجئت تريد أن تسترق الناس منها جميعاً لتذرهم — بعدها — حطاماً خوى من الكرامة والرجولة والإنسانية . لقد قلت لي يوماً « أنا ابن الطبيعة وثمرة الحرية فدعني أهم في أرجاء الأرض لا يقيدني وطن ، ولا يمسكني دين ، ولا تربطني لغة . دعني أنطلق منها فهي أغلال ثقيلة تشل عقلي وتصفد خواطري وتعيث بأفكاري » آه يا صاحبي ، إنك حين تنبذ المعاني السامية للوطن والدين واللغة تسجل على نفسك أن في عقلك لوثة وأن في خواطرك خللاً ، وأن في أفكارك صدعاً .

* * *

لقد درج أحمد وشب في كنف الريف ، ونما وترعرع في حضن الغيط ، وقوى واشتد في ظل الدين . ثم دفعه أبوه إلى الكُتّاب ليقرأ — أول ما يقرأ — القرآن ، ويتعلم — أول شيء — الوضوء والصلاة . وقضى سنوات يغدو إلى الكتاب ويروح إلى الدار أو إلى الحقل ويختلف إلى المسجد ، وأبوه رجل ريفي جاف ، غليظ الكبد ، شديد البخل ، سريع الغضب ، ضيق العقل ، ثائر الأعصاب ، تزعج الدار لرؤيته ، وتتفزع لغضبه ، وهو — دائماً — يلتمس أوهى الأسباب ليزجر زوجه في عنف ، ويعاقبها في جفوة ويقسو عليها في إفراط ، والزوجة تضطرب بين يديه في صمت وتبكي في تخاذل ، والدار في عينها جحيم تتسعر ما يهدأ أوارها ، ولا يسكن لهبها إلا حين يتوارى هذا الوحش الكاسر .

وشب الفتى بين أب جاف وأم متكسرة ، يشهد عنت الأب وثورته ويقاسي هوان الأم وذلتها ، وهو عاجز اليد واللسان لا يستطيع أن يرد أباه ولا أن يدفع عن أمه ، فعاش هملاً في ناحية من الدار يفتقد العطف ، وقلب أبيه صلب لا ينبض بشفقة ، ولا يخفق برحمة . والبخيل — دائماً — رجل أرضي النزعات ترابي المشاعر طيني الجبلة لا تشرق في نفسه أضواء الرجولة ولا ومضات الإنسانية . وأمه في شغل تجتاحها المواجع من حولها فلا تحس في قرارتها معاني المرأة ولا روح الأنثى .

وهكذا اضطربت الحياة في ناظري الفتى وتزعزعت أركانها ، فنشأ ضعيف النفس ، واهي الروح سقيم الخلق وضيع الهمة ، وبدا منقبض الأسارير مشلول العقل ، لا يحس السعادة في طفولته ولا يجد اللذة في صباه ولا يستشعر المتعة في شبابه ، يأنس بالوحدة ويطمئن إلى الخلوة ، وتعقدت نفسه فانحط عن أترابه ، وعزل عن زملائه . وأزمنه هذه الخصال فعاش عمره مضعضع الجانب مغلول النزعة مستلب الحرية .

وحين انتظم في سلك المدرسة وجد في الكتاب سلوة وعزاء فدفن نفسه بين دفتيه لا يبغي عنه حولا ، فصدأ عقله من طول ما انكب على الدرس ، وتحل جسمه من طول ما أرهق ذهنه ، وذوى شبابه من طول ما ذاق من حبس ومن حرمان . وإن الطالب في المدرسة ليقع بين عدوين : المدرس والمنهج . فالمدرس في المدرسة يسيطر عليه الفتور والملل فهو يشرح في خمول ويعامل تلامذته في قسوة ، لا يندفع إلى العمل في نشاط ، ولا يهب إلى الدرس في رغبة ، وإن نفسه لتتوثب سخطاً وكراهيه حين يحس عنت العمل وضياع الحق ، وإن حيويته لتخبو رويداً رويداً حين يخيل إليه أنه قد تخلف عن الركب ، فهو — في رأي نفسه — يبذل غاية الجهد ولا يجد الجزاء ، ويستغرق منتهى الطاقة ولا يلمس الوفاء . أما المنهج فهو أخلاط من العلم يشوه بها العقل المتألق ، وأشتات من النظريات يتيه في أضعافها الذهن المشرق ، وألوان من الدرس يضل في ثناياها الفكر المتوثب . فما بال أحمد ؟ لطالما كان يتمرد في طفولته ، ولكنه سكن إلى الدرس لا يرمم ، فهو يخشى وطأة أبيه وإن يده لثقيلة ، ويكره داره في القرية ، وإن جنباتها لموحشة ، ولا يطمئن إلى أمه وإن فيها التكسر والخذلان

* * *

وتخرج أحمد — بعد لأى — فى مدرسة المعلمين العليا قسم الآداب ولكن أعجزه أن يكون مدرساً ناجحاً بالمدارس الثانوية فانطلق يتلمس مخرجاً . ووجد الخلاص على يدى رجل من رجال الدولة ذى مكانة وشأن ، فراح يتملقه ويستخذى له ويستجدى عطفه ، فقربه الرجل إلى نفسه وأدناه من مجلسه ، ونقله من المدرسة إلى الديوان ليكون صنيعة له هو ، وليكون مرءوساً له ، وليكون آلة صماء يديرها على أى نسق شاء .

وجلس الفتى إلى مكتبه فى الديوان ، وإن قلبه ليتوثب فرحاً من آثر الفوز ، ولكنه ما لبث أن رأى نفسه ساقة بين زملائه ، منبتّاً من رفاقه ، لا يكاد يبلغ شأوهم ، ولا يستطيع أن يرقى إليهم ، فاستولى عليه اليأس وتملكته الحيرة .

أما الرجل ، فهو موظف كبير فى الحكومة ، وسمته الوظيفة بميسمها ولفّته فى خبالها . والوظيفة الحكومية تسم الموظف الكبير بالنطرسة والكبرياء وتصبغه بالعظمة والتسامى ، فهو بركن — دائماً — إلى من يتملقه ويتمسح به ، وينفر — أبداً — ممن يحس فيه الإباء والكرامة والشرف . وقسم الموظف الصغير بالضعة والقلة . واطمأن الفتى إلى رئيسه الكبير حين وجد فيه العون والساعد ، واطمأن الرئيس إلى الفتى حين لمس فيه الطاعة والاستكانة . وعاش أحمد تبعاً لرئيسه يتصاغر أمامه إن أغلظ له القول ، ويتضاءل له إن أرهقه بالعمل ، لايستشعر فى ذلك الاحتقار ولا المهانة ، وهو يرى أن الأمر قد تهيأ له واستقام ، وأن المستقبل — فى رأى عينه — قد تفتح له وازدهر على يدى هذا الرئيس ...

وكان الرئيس رجلا يتصنع الأدب وما توافرت له أدواته ، ويتكلف العلم وما تكاملت له أسبابه ، فاتخذ من الشباب المثقف صنائع ضمهم تحت جناحيه وحباهم بعطف موهوم ، بذل لهم الوعد الخلاب ، ومد لهم فى الأمانى البراقة ، ثم راح يستنزف شبابهم النضر ويستغل عقولهم الناضجة ، فامتلأت داره بمن يقدم له الأبحاث العلمية ، ومن يترجم له أمهات الكتب الغربية ، ومن ينشئوا له المقالات القيمة لقاء كلمة مسئولة ، أو ابتسامة عابرة ، أو مديحات لا تسمن أو تغنى ...

ووجد الرئيس فى أحمد فتى سلس القياد ، سهل المخطوم ، لين العريكة ، لا يمل العمل وإن أضناه ، ولا يضيق بالجهد وإن أسئمه ، ولا يقصر فى أمر وإن أهمل عليه ، فاصطفاه لنفسه وعهد إليه — فيما عهد — أن يترجم فصولا من كتاب فى الفلسفة

ودخلت — ذات مرة — إلى مكتبه فى الوزارة فألفيته جالساً إلى هذا الكتاب يترجم فصوله إلى اللغة العربية ، وبين يديه قاموس كبير ، ومن حوله رفاقه فى المكتب وقد انتشروا فى نقاش عنيف صاخب ، فامتلأت أرجاء الحجرة بالضجة واللغط والشوشاء والفتى منصرف عن الحديث إلى الترجمة لايبالى بما حوله ... وعجبت أن يؤدى الفتى هذا العمل الفنى الدقيق فى هذه الضجة الصاخبة ، وهو يتطلب المكان الساكن والأعصاب الهادئة والفكر المتفرغ !

وَىْ ... كأن هذا الفتى يعمل عملا آلياً لا روح فيه ولا معنى! لا عجب إن أخرج للناس صفحات سهلة متداعية تتكدس فى جوانبها الأخطاء اللغوية والأغلاط الفنية ... ولكن الفتى كان حريصاً على أن يرضى رئيسه وأن يقدم له أكبر إنتاج فى أقصر وقت ...

وحين لمس الرئيس فى الفتى الجد والإخلاص والجلد عزم على أن يجزيه أجر ما عمل . وفى ذات يوم أخذ يحدثه قائلا : « كيف تقضى وقت فراغك يا أحمد ؟ » قال : « فى البيت يا سيدى » . فقال الرئيس : « أفلا تريد أن تشغل فراغك بعمل يدر عليك مالا ؟ » قال الفتى : « وكيف السبيل يا سيدى ؟ » قال : « لقد وجدت لك عملا يرضيك ، أقدمه لك جزاء إخلاصك واجتهادك » قال الفتى فى سرور ونشوة : « وما هو يا سيدى ؟ » قال : « أن تقوم بالتدريس مساء فى معهد (كذا) الأجنبى » — واندفع الفتى إلى رئيسه يلثم راحته شكراً له على فضله وتقديره !

ودخل الفتى المعهد ليبيع كرامته وشرفه ورجولته بثمن بخس دراهم معدودات ... واطمأن عميد المعهد إلى استخذائه وضعفه ، فشمله بعطفه وحباه بصداقته ... ثم ... ثم قرر — بعد حين — أن يوفده فى بعثة إلى الخارج ليتم دراسته على نفقة المعهد ليكون صنيعة له وعوناً وساعداً .

ولبس الفتى القيمة .. لبس القيمة ليتزل من كرامته ولينبذ المعانى السامية للوطن والدين واللغة ...

كامل محمود حبيب